الفصل الخامس

عروة بن الورد ..

هل كان صعلوكًا «نبيلاً»..؟!

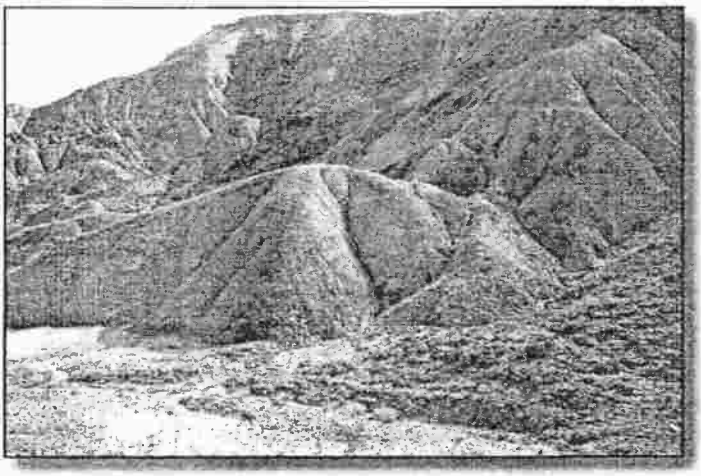

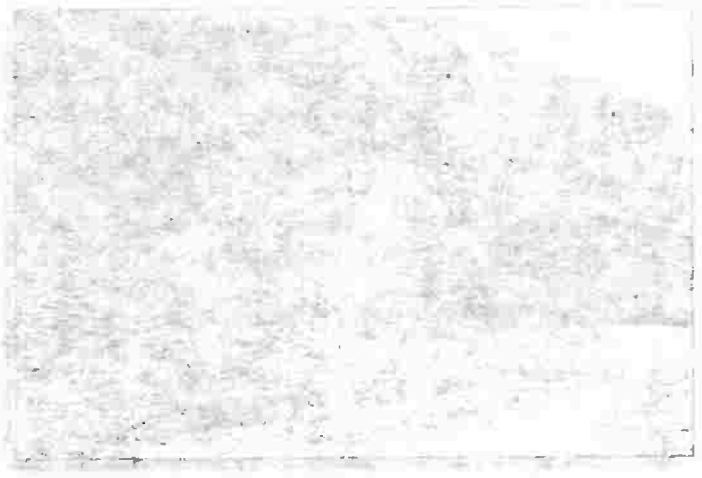

كان الصباح يتنفس حين دقت أيادٍ معروقة بابه..

كانوا ضامرى الأجساد مهزولى الأذرع وعلى شفاههم يَبَاس أجوافهم..

قالوا له: يا أبا الصعاليك أغثنا.. فالعام عام جوع..

فكان أن اشتعل بعباءته.. وقفز إلى ظهر حصانه ونظر فى جهات الوادى الأربع.. وقال: اتبعونى..

تعثروا خلفه.. لكن يقينهم أنه لن يخذلهم أعطاهم دفعاً معنوياً شدّ على أقدامهم فإذا بهم يسبحون فوق الرمال.. كالطير..

ولم تمضِ سحابة النهار حتى كانوا يغفون فىّ ظلال أشجار الوادى المتناثرة ويغطون غطيط المتخم الهانئ البال وعلى مقربة من مضاجعهم المؤقتة تبعثرت بقايا الأسلاب..

وجاءه فتى يسأله أن يعطيه فأعطاه فرساً وقال له وهو يضرب على مؤخرتها «إن لم تستغنِ بها.. فلا خير فيك..».

.. هو عروة بن الورد بن عمرو بن زيد بن عبد الله بن ناشب العبسى عاصر عنترة ولم يختلط به وإن كان كلاهما يكنُّ الاحترام للآخر، فعنترة كان شاعراً «مقيماً» فى الديار، أما هو فكان من مقتحمى المجهول والآفاق..

لا أحدَ يعرف لماذا اتخذ من الصعلكة أسلوباً لحياته..

هل لأن أباه آثر أخاه عليه..

أو لأنه تخاصم مع قيس بن زهير - صاحب حرب داحس والغبراء - ووصلت بهما المشاحنات حدَّ التقاذف بالهجاء المقذع حين قال فيه قيس:

رأيتك ألاّفاً بيوتَ معاشرٍ نزال يدٍ في فضلِ صعبٍ ومرفدِ

فقال له عروة - أو رد عليه هجاءً بهجاء - :

إني امرؤٌ عافي إنائي شركةٌ وأنتَ امرؤ عافي إنائك واحدُ
أتهزأ مِني أنْ سمنتَ وأن ترى بجسمي شحوبَ الحقِ والحقُ جاهدُ
أفرّق جسمي في جسومٍ كثيرةٍ وأحسو قراحَ الماءِ والماءُ باردُ

....

فأسكته.

لكن عروة غادر المسرح، وترك القبيلة في معركتها «الخطأ» مع أبناء عمومتها ذبيان والتي اصطلح تاريخ العرب على تسميتها «داحس والغبراء» فكان يرى أنها حرب حمقاء جاهلة - وإن لم يمنعه ذلك من التفاخر أحياناً ببني قومه عبس - ومبلغ حمق هذه الحرب أن سببها تافه:

كانت القبيلتان في وادٍ وسيع كأنه المضمار، وتراهنا على سباق جرى بين جواد يدعى داحس «يعود لقيس بن زهير من أشراف عبس» وفرس تسمى الغبراء «تعود لحَمَل بن بدر من أشراف فن فزارة وهم فرع من ذبيان» وتنافس رجلان أحدهما من عبس والآخر من فزارة حول الجوادين فانتقلت المنافسة إلى قيس بن زهير وحمل ابن بدر فكان رهان بينهما على عشرة من الإبل تكون للفائز، ومع اعتداد كل فريق بجواده ارتفع الرهان إلى مئة من الإبل وبدأ السباق وكان حَمَل بن بدر صاحب الغبراء قد أعدَّ كميناً في طريق السباق قوامه فتيان من قومه أوصاهم بأن يَحْولوا بين الجواد داحس وغايته إذا جاء في المقدمة.

وجرى السباق وتجاوز قيس بن زهير بجواده حَمَل بن بدر بفرسه واقتربَ الفوز لداحس لولا أن ردَّه الكمين عن غايته وتمكنت الفرس الغبراء بذلك أن تنال «قصب السبق».

ولم يَقْبل سيد عبس بالنتيجة وغضب غضباً شديداً وقعقعت السيوف فأغمد قيس سيفه فى قلب عوف بن بدر فعاجلت فزارة مالك بن زهير وقتلته، فاستمر مسلسل القتل بين الحيين والذى ما لبث حتى اتسع لتكون حرباً، تستمر وقائعها أربعين سنة متواصلة وتأخذ «مكانتها» فى التاريخ على أنها إحدى حماقات العرب الكبرى..

رفضها عروة.. وهو ما يوحى بأنه كان يملك عقلية غير عادية حيث لم ينسق وراء عصبية القبيلة ويشاركها الفعلة الحمقاء بل ابتعد.. ولعله يكون السبب الذى من أجله هجاه قيس بن زهير الذى استنكف منه هذا الابتعاد وهو أحد فرسان القبيلة المعدودين أو أحد رءوس حرابها المشهورين..

هل هذا هو السبب أيضاً.. أو أنه كان صعلوكاً حقاً وهى الصفة التى جاء عنها فى لسان العرب لابن منظور أن «الصعلوك هو الفقير الذى لا مال له وقد تصعلك الرجل إذا كان كذلك» أو كما جاء فى نفس «اللسان» وفى باب صَعَلك «التصعلك الفقر وصعاليك العرب ذؤبانها»..

أو لأن فقره هذا كان «يضع» منازله فى آخر موضع للقبيلة، فمن المعروف أن رءوس القبيلة تسكن قلب مواضعها يليهم الأقل مكاناً فالأقل فالأقل.. فعروة..!!

وإذا أصبح معروفاً لدينا أن بلاد القصيم هى موطن عبس وبطونها متجاورة فيها مثلما قال الهمدانى فى صفة جزيرة العرب: «أن من أوطان اليمامة القصيم لعبس» وقال الأصمعى بعد ذكره الرمة واد: و «أسافل الرَّمة تنتهى إلى القصيم وهو رمل لبنى عبس» – وهو ما ذكرناه من قبل فى دراستنا المكانية عن عنترة العبسى – إذا تذكرنا ذلك لعرفنا أين كان موضع عروة وعشيرته خاصة أن عنترة كان يسكن «قو» – قصيباء حالياً – وهى مكان البطون من عبس بينما تتناثر بقايا القبيلة على مساحة كبيرة.

فى القصيم وقفتُ على الوادى فإذا هو عظيم الاتساع تختلط رماله ببعض «الثوابت» الصخرية لكنه يتميز بقلتها وبنعومة رماله التى لم تمنع بعض شجر الأثْل من الطلوع فى رائعته، فقد كان الوادى عظيم المياه قديماً، مما يوحى بأنه يحتوى على مخزون جيد من المياه الجوفية.

وقد ذهبت إليه عن طريق مدينة بريدة إحدى أهم مدن منطقة القصيم السعودية، وهو يقع فى شمالها الغربى على مسافة تتراوح بين خمسة عشر إلى عشرين كيلومتراً وله طريق آخر بالقرب من بلدة الربيعية كما أن الوادى «يمر» بمدينة عنيزة وتقترب حدوده من «ظهر» الجواء التى هى بدايات أرض السادة من بنى عبس..

كان عروة بعيداً بعض الشىء عن مواقع المصادمات المستمرة بين عبس وذبيان فيما عنترة هناك يتفاخر والنابغة يقارعه فخراً بفخر وهجاء بهجاء..

كان عروة فى هذا المكان الفسيح من الوادى - ربما - تحت ظل شجرة أو خلف جدار بيته المصنوع من البوص يفكر فى حاله وحال من حوله من فقراء القبيلة.. فهل كان ذلك سبباً آخر أو السبب الحقيقى لتصعلكه..؟

وإذا اعتبرنا سابقاً أن له عقلية مختلفة جعلته يرفض حرب قومه الحمقاء فمعنى ذلك أن مثل هذا القرار جاء بعد تفكير عميق.. وصاحب التفكير العميق فى مثل هذا الزمان القديم كان نادراً..

وكانت ندرته العقلية سبباً فى تحوله إلى ندرة نوعية..

حيث لم تألف العرب ذلك..

كانت الإغارات للقبيلة برمتها وكانوا يتخذون لذلك سبباً حتى لا يلحق بهم العار فيما بعد أو يَصمهم الناس باللصوصية..

لكن أن يُغير شخص.. شخص واحد على مكان بعينه فقد كان ذلك غريباً.. غريباً إلى درجة الجنون..

لكنه جنون العاقل «كما يرى ذلك كثيرون»..

فلم يكن يُغير إلا على أغنياء الحى.. ولكن أىّ أغنياء..؟!

كان كثير من أهل زمنه من ذوى اليُسار يشتهرون بالكرم وإقراء الضيف والعطف على ذوى الحاجة.. فلم يكن له فى مثل هؤلاء حاجة..

كانت حاجته فى المقترين الأشحاء القابضين على أيديهم «المغلولة إلى أعناقهم» والذين لا تتحرك فيهم أية مشاعر إنسانية حتى لو تلوى الفقير جوعاً أمامهم ونفق كالبعير..

كانوا لا يتحركون إلا ليديروا ظهورهم لمثل هذه الحالات التى يعتبرون أصحابها

مـن الرميم، وعلّهـم الذين سمّوا الوادى «الرمة» لأن فقراءهـم فيه.. لكن عروة بدأ يســتنّ نظاماً «اجتماعياً» جديداً فتشــاكى ضحاياه وأنفذوا نفوذهم فى القبيلة التى اجتمعت وقررت فى البداية طرده من حظيرتها «ليسهل استحلال دمه» ونا اعترض كثيرون على أنه من ذات الرحم وذات الدم بدءوا ينهجون معه نهجاً نفسياً فيعيرونه بما يفعل أو بما لم يفعل - حتى لا يفعل - فى حين انصرف بعض نســابيهم إلى النبش فى ذاكرة القبيلة فتبين أن أمه ليست من بنى عبس وأن أباه الورد قد سباها فى إحدى الغزوات القديمة «وهو نفس ما فعله عروة مع سلمى التى سباها أعواماً ثم أولدها بناته وتزوجها بعد ذلك» فبدت صلة أمه مقطوعة النسب ببنى عبس وكأنها سبة على جبينه فعيروه بها فيما بعد إلا إنه لم ينسَ إساءة قومه له:

هم عيّرونـى أن أمـى غريبــةٌ وهل فى كريم ماجدٍ ما يُعيــرُ
وقد عيّرونــى المالَ حيـن جَمَعْتُهُ وقد عيّرونــى الفقــرَ إذْ أنا مُقْتَرُ

لكنه تناسى السبب الذى من أجله ثارت عليه القبيلة والذى يعلمه فى دخيلته وهو ابتعاده عن مشاركة سيفه فى قتال «الأعداء» الذين هم أبناء العمومة - لأن صفة البخل كانت مذمومة عند العرب ولم يتوقفوا كثيراً إلا لمدح الكرام..

وانفرد عروة..

كان خروجــه هــذه المرة من الــوادى إلى حيث الفضاء الرملى المتســع.. والذى يعــرف أن الكثير من الأحداث تكمن لــه خلف تلاله.. فقطع صحراء نجد، جنوباً إلى الحرة الشــرقية التى فى آخرها خيبر وآخر وادى خيبر الطريق إلى يثرب لكنه طمع فى خيبر وكانت موطناً لليهود وذات حصون وعيون مائية ونخيل كثيرة وخير عميــم وكان يهود خيــبر - ككل اليهود فى أى مــكان - مقترين وبخلاء وكانت البعوض تكثر بأرضهم بســبب وفرة الميــاه أى كان مرض الملاريا يهدد مَنْ يدخلها دون علم به، وعلى رغم هذا كان اليهود يعيشون دون أن يصابوا به، ولعلهم كانوا يعرفون ســر دواء يكافحون به المرض فلما اشــتدت عليهم العرب فى طلب معرفة هذا الدواء قالت اليهود: إنه يعنى ببســاطة أن ينهق الرجل كالحمار عشــر مرات على أبواب المدينة فيســلم من المرض، وقد ذاعت الخرافة وأخذت شــهرتها شهرة خيبر المكدسة بالخيرات وقد أثبت عروة بشعره ذهابه إلى هناك واستخفافه بخرافة

النهيق «ألم نقل إن عقله كان متطوراً» وإصراره على إصابة شيء من خيرات هذه البلدة بالحسنى أو.. بالحرب.. ولكنه لم يذكر كيف عاد وبأى شيء:

وقالوا أحِبْ وانهقْ لا تضيركَ خيبرٌ ... وذلكَ من دين اليهود ولوعُ
لعمرى لئن عشّرت من خشيةِ الرّدى ... نهاقَ الحمير فإننى لجزوعُ

نفس التحدى الذى أوقف زوجته سلمى فى طريقه حين أحست أنه «سيحترف» الإغارة على القبائل لكى يطعم فقراءه الذين يتكاثرون ويكثرون من حوله وهو يحمل همَّ إطعامهم وسقياهم وكسائهم.. أى إنه بدأ يحتل مكانة الزعامة، لكنها زعامة مختلفة.. فهو زعيم لجوعى دائمين فصرخ فى وجه زوجته حتى لا تسد الطريق بينه وبين «مجده» القادم:

ذَرِينى أسيرُ فى البلادِ لَعلّنى ... أصيب غنى فيهِ لذى الحقُّ محْمَلُ
فإن نحنُ لم نسطعْ دِفاعاً لحادثٍ ... تجئ به الأيامُ فالصبرُ أجملُ

وهكذا بدأ الطريق الصعب.. الطريق الذى مهد به لنظرية اجتماعية سيكون لها خطرها فيما بعد، لكن المرأة هى المرأة دائماً خاصة إذا كانت زوجة.. وزوجة من..؟! لشاعر متمرد وفارس كاسر مثل عروة فتسأله ولا تملّ من السؤال إلى أين.. كيف.. ومتى تعود لبناتك ومضاربك ومن يحمينا من بعدك.. ولكنه كان قد أعدّ لكل شيء عدته فالكثير من الصعاليك يتواجدون لحماية «القبيلة» المتصعلكة أما زوجته فلها الرد بالقريض:

وسائلةٍ أينَ الرحيلُ وسائلٍ ... ومن يسأل الصعلوك أينَ مذاهُبهْ
مَذَاهِبهُ أنَ الفِجَاجَ عريضةٌ ... إذا ضَنَّ عنهُ بالفِعالِ أقاربُهْ

وقوله:

أقِلّى علىَّ اللوم يابنةَ منذرٍ ... ونامى وإن لم تشتهى النوم فاسهرى

وهكذا تعود دائرة الاتهام لتحيط عبساً وما فعلت ويصلها ذلك شعراً فتبدأ فى الحزن على فراقه – وما كان أسهل أداة «إعلامية» من الشعر فى ذلك الزمان..؟! – يقول الشاعر فيحفظه النَقَلة ويذهبون به فى الفجاج والوديان فيصل بعد أيام إلى شمال جزيرة العرب فى نفس الوقت الذى يصل فيه إلى جنوبها، ولعل خطر هذا

الشعر الذى يكاد أن يُلحق العار بعبس فى أنها طردت أحد أبنائها – خاصة وهى فى حالة حرب – و«أبواق» الدعاية المضادة تنتظر أى كبوة لجواد الأعداء لتلتقطها وتثبتها شعراً فى تاريخ القبيلة، فقد كان الشعر هو تاريخ العرب المكتوب، ولذلك لانت عبس أخيراً خاصة حين «أقنعت» نفسها بنُبل مقصد عروة فدعته للديار معززاً مكرماً لكنه كان قد اقتنع هو الآخر «بنبل مقصده»، فأقنع نفسه بالاستمرار وهو يهمس فى قصيدة لها – لنفسه – :

خاطِرْ بنفسك كى تصيبَ غنيمةً إن القعودَ مع العيالِ قبيحُ
المالُ فيه مهابةٌ وتجلّةٌ والفقرُ فيه مَذَلةٌ وفضوحُ

وهكذا انتشر خبره، وذاعت «مواقعه» اليومية، وهو ما يثبته شعره:

فَمَا أنا عند هَيْجا كل يوم بمثلوجِ الفؤادِ ولا جبانُ

ونقرأ للدكتور شوقى ضيف رأياً فى عروة أثبته فى كتابه «تاريخ الأدب العربى – العصر الجاهلى» حين يقول: إن عروة بن الورد كان صعلوكاً نبيلاً، فقد طمح إلى مَثَل إنسانى رفيع فى البر والرحمة والإيثار فارتقى بالصعلكة وجعلها باباً من أبواب السيادة والمروءة، إذ استشعر بقوة فكرة العدالة الاجتماعية، فثار على الأغنياء والأشحاء، وانتصر للفقراء والضعفاء من قبيلته، وسعى لهم أكثر مما سعى لنفسه وزوجه وعبَّر عن ذلك فى شعره أدق التعبير وأصدقه.

ولهذا الضرب من شعره وشعر غيره من الصعاليك الفقراء وأغربة (جمع غراب) العرب قيمة تاريخية كبيرة، فهو يدل على أحوال الفقراء المظلومين والسود المضطهدين فى قبيلته وفى القبائل النجدية الأخرى، كما يدل على أفكارهم الإصلاحية، ووسائلهم العلمية لتحقيق المساواة الاجتماعية، فقد كانوا جميعاً يعانون من التفرقة الطبقية والعنصرية، وكانوا ينشدون العدل والتكافل بين أبناء القبيلة، حتى يرعى غنيُّهم فقيرَهم، ويمد لهم يد العون والمساعدة وحتى يحترم صريحهم هجينهم، ويقدره على أساس فضله فى نفسه ونفعه لقبيلته، لا على أساس دمه ولونه، فلما استحال ذلك عليهم، تصعلكوا وخرج فريق منهم على قبائلهم، والتمسوا تحقيق وجودهم وتحصيل أقواتهم بسيوفهم ورماحهم».

ولا نعتذر عن هذا التطويل من كلام الدكتور ضيف إلا لكى نناقشه أو نناقش المسألة كلها من حيث «المبدأ» فأيّاً ما تكون الدوافع: نبيلة أو دنيئة، إلا أن السرقة «كقيمة» لا تندرج فى أخلاقيات العرب السائدة وقتذاك، ولا فى التأثير الذى تركته جماعة عروة فى نفوس غيرهم - ممن هم على نفس الشاكلة - وإلا فبماذا نفسر استشراء التناحر والاقتتال بين القبائل بعد شيوع الظاهرة، إذا كان هناك - دائماً - مَنْ يعرف الفاعل - أو الجانى - وبالتالى معرفة مصدره القبلى، وعليه فإن القبيلة أو العشيرة التى تعرضت للنهب لم تكن لتقول «فاعلها الصعلوك فلان» وتكتفى، بل كانت تكمل «وهو من القبيلة كذا وتقع بأرض كذا» ومن ثم كانت القبيلة المنهوبة - التى أصابها العار فى هذه الحالة - تستعد لغسل هذا العار والثأر لقتلاها - الذين لابد من وقوعهم على أرض المحاولة - فتحمحم بخيولها وتقعقع بدروعها وتصلصل بسيوفها.. و.. ترتوى الرمال العربية من جديد بدماء أخرى كثيرة وتُهتك أعراضٌ وتُسبى صبايا، وتستعد القبيلة المنتهكة لرد الصاع.. و.. هكذا.. فى دورة دموية لا تنتهى..

لكن.. إذا قال قائل بأن هذه النظرة التى ندعيها تقع فى صالح الأخلاقية المثالية، فإن ردنا يقول بأن هذه «المثالية» كانت موجودة فى أعراف العرب الجاهليين قبل غيرهم وإلا فبماذا نفسر احتفالهم بالجوانب الأخلاقية الرفيعة مثل إغاثة الملهوف وحماية الضعفاء وستر العورات من الناس، وإكرام الضيف وما إلى ذلك من صفات حميدة تندرج تحت المسمى الفضفاض للفروسية الحقة - بمعناها الجمالى والجدلى أيضاً - وبماذا تفسّر التحول الذى طرأ على عروة من مجرد خروجه إلى «إصابة غنيمة» أو لكى «يصيب غنى» من واقع السبب الأوحد الذى ذكره وهو أن «المال فيه مهابة وتجلة» لأن «القعود مع العيال قبيح» دون نظر لأى أسباب من مثل ما اجتهد الدكتور شوقى ضيف فى تصنيفه «وتصفيفه» ومحاولة إسباغ نظرية «المساواة الاجتماعية» على مثل أفعالهم، أو من مثل ما اتجه إليه الدكتور يوسف خليف فى كتابه «الشعراء الصعاليك فى العصر الجاهلى» من أن «أبا الصعاليك» يسجل فلسفته فى هذه المشكلة الاجتماعية الخطرة: مشكلة الفقر والغنى» أو كما يقول أيضاً «وعرف هذا الزعيم الشعبى نفسية جماهيره» - هكذا إذن - أصبح عروة

زعيماً شعبياً دون أن يعى، ولكننا نسأل بماذا تفسر التحول الذى أصابه من التوجه الأوّلى الذى حركّه وهو الحاجة لكى يقول – فيما بعد – :

وقد علمتْ سليمى أن رأيى ... ورأىُ البُخلِ مختلفٌ شتيتُ
وإنى لا يُرينى البخلَ رأىٌ ... سواءٌ إن عطشتُ وإن رويتُ

أو حين يقول:

فِراشى فراشُ الضيفِ والبيتُ بيتهُ ... ولم يُلهنى عنه غزالٌ مقنّعُ
أحدّثه، إن الحديثَ من القِرى ... وتعلم نفسى أنه سوف يهجعُ

أو حين يقول:

ومكروبٍ كشفتُ الكُرْبَ عنه ... بضيقةِ مأزقٍ لما دعانى
فقلتُ له أتاك أتاك فانهضْ ... وكنتُ حينَ أنهضُ غيرَ وَانِ

ألم يُرِد عروة هنا أن يسبغ على غاراته اليومية صفات أخرى من المثالية الأخلاقية التى أتوهم أن القارئ قد يتهمنا بها فى معرض الحديث..؟!

ألم يفعل عروة ذلك لكى تكتسب حركته الإصلاحية – بتعبير الدكتور ضيف – شرعية كانت تفتقدها وتعطى له المجال لكى تستقبله قبيلته الأولى عبس بكل الترحاب وكأنه عائد من رحلة ماجدة..؟!

أليست عبس هذه هى التى استنكرت فعلته الأولى – حتى وإن كان السبب الحقيقى تقاعسه عن الحرب معها ضد ذبيان..؟!

إن عروة كان ذا عقلية مرنة ومتسعة الأفق – وهو ما أشرنا إليه سابقاً – وذلك يعنى أنه «أعمل» التفكير هنا بإشاعة هذا «النبل» فى تصرفات غير أخلاقية وذكره شعراً ليصل بسرعة أكبر للمجموع العربى على أرض الجزيرة العربية، وهى وسيلة أكثر تأثيراً من الأفعال نفسها، فى الذهنية العربية «الموسقة» والباحثة دوماً عن الإطراب ولغة الإغارة والسلب، ولكن ذلك يحيلنا إلى التأثير البيئى عليه، وإن كان ذلك لا يعنى ضمناً اتفاقنا مع أسلوبه، وهو أن الجزيرة العربية برمتها كانت تعيش بهذا الأسلوب، فما الذى يعنى اجتياح قبيلة لقبيلة لأوهن سبب ودون عِلّة ظاهرة، أو لعِلةٍ مختلقة خصيصاً لتهيئ النفوس على مراجلها، أليس ذلك سرقة منظمة،

وإذن كان العرب «يدّعون» هذه الأخلاقية المثالية، ويحاولون سبغها عليهم – شعراً دائماً – لكى تستقر فى أذهان مخايلهم أو الأجيال الملاحقة لهم.

ألم يكن القتال مسألة ضرورية للقبيلة لكى تشعر بأنها «تعيش»..؟!

ألا يستتبع ذلك بالضرورة استيلاءً على سبايا وهتك أعراض وأعمال قتل وتخريب، وهو نفس ما يفعل فيما بعد – أو حدث فيما قبل – لهذه القبيلة المغيرة، الأمر الذى يعنى أن نساء الجاهلية لم يسلمن جميعاً من السبى وهتك الأعراض، كما يعنى أن كل فرد هو لص، بنفس مقدار لصوصية القبيلة، وهو أيضاً ما يعنى نفى الصفات الحميدة «المزعومة»، ثم ألم يقم الإسلام بعد ذلك بنبذ الفرقة بين القبائل بسبب خطر هذه الفرقة وأطلق صفة «الجاهلية» على أساليب هذه الحيوات المتناحرة..؟!

ولو كان المجتمع القبلى «متمتعاً» بصفاته الأخلاقية المثالية فما الذى كان يدعو الإسلام إلى نبذ الأخلاقيات السائدة فى الجزيرة العربية..؟! أو إلى منع العرب من ترديد أشعار الجاهلية، ليس لأنها تحتفل بالوثن، ولكن لأنها تؤكد هذا المعنى المذموم وتثير حفيظة التناحر وتدعو إلى الاقتتال، وإذا كنا معجبين بحماسة عنترة حين يقول:

مازلتُ أرميهِم بثُغرةِ نَحْرِه   ولَبانه حتى تَسَرْبَلَ بالدم

وهو هنا يصف بطولته فى داحس والغبراء، فإننا فى نفس الوقت معجبين بالنابغة الذبيانى – فى الخندق الآخر – وهو ينشد:

غداةَ تعاورته ثمَّ بِيضٌ   دفعنَ إليه فى الرهجِ المُكنِّ

فأىُّ تمزق هذا..؟!

فى نفس الوقت الذى نعجب فيه بشعر المدح، وهو أكذب ألوان الشعر – وأكثره – من أجل العطايا واكتساب المال وهو تسول بالمعنى الحرفى للكلمة فى مثل قول الحطيئة – وكان أشرّ – لا أشعر – الشعراء فى هذا المقام:

فتى لا يُضَامُ الدهرَ ما عاش جارُهُ   وليس لإدمانِ القِرى بملولِ
هو الواهب الكُومَ الصفايا لجاره   وكلَّ عتيق الحُرَّتين أسيلِ

مثلما يعجبنا تصوير النابغة – أيضاً – فى مدحه النعمان:

فإنك شمسُ والملوك كواكبُ إذا طلعتْ لم يَبْدُ منهن كوكبُ

ولا نستنكر على أنفسنا هذا الإعجاب بل ندرس لأجيالنا مثل هذا الكذب الكبير..!!

ألم يكن عروة ابن هذه البيئة بكل سلبياتها وقليل إيجابياتها، فلماذا إذن نخلع عليه وحده صفة اللصوصية – والنبيلة أيضاً، على رغم أنه يعترف أنه يفعل ذلك «لنفسه» فيما يقول:

إذا المرءُ لم يطلب معاشاً لنفسه شكا الفقرَ أو لامَ الصديق فأكثرا

وهو هنا يطلب المعاش بالطريقة «المستخدمة» فى الحياة، ولكنه يخرج عن السياق الجمعى ليغرد خارج السرب وحده..

وعلى رغم ذلك، فإننا نستعين برأى أبى الفرج الأصفهانى فيه حين يقول:

«كان عروة بن الورد إذا أصابت الناس سنة شديدة وتركوا فى دارهم المريض والكبير والضعيف..، يجمع أشباه هؤلاء من دون الناس من عشيرته فى الشدة، ثم يحفر لهم الأسراب (البيوت تحت الأرض) ويكنِّف عليهم الكُنُف (الحظائر) ويكْسِبهم (يطلب المعيشة لهم)، ومن قوىَ منهم خرج به معهم فأغار، وجعل لأصحابه الباقين من ذلك نصيباً حتى إذا أخصب الناس وألبنوا وذهبت السنة، ألحق كل إنسان بأهله وقسَّم له نصيبه من غنيمة إن كانوا غنموها، فربما أتى الإنسان منهم أهله وقد استغنى، فلذلك سمى عروة الصعاليك».

ولا يزداد عجبنا إذا قرأنا أن معاوية بن أبى سفيان كان يقول «لو كان لعروة ابن الورد ولد لأحببت أن أتزوج إليهم» وكان عبدالملك بن مروان يقول «من زعم أن حاتماً أسمح الناس فقد ظلم عروة بن الورد» وكان يقول: «ما يسرنى أن أحداً من العرب ولدنى ممن لم يلدنى إلا عروة بن الورد»..

فأىُّ الجانبين أصوب..؟!

وادي الرمة.

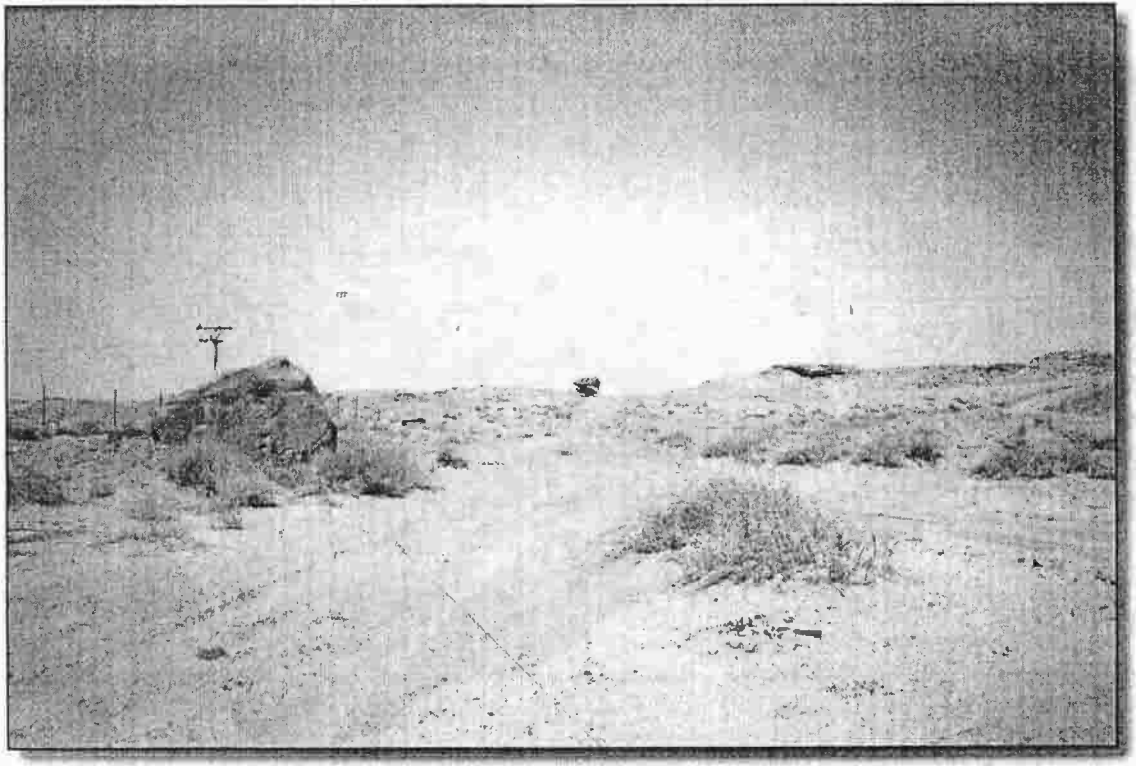

جانب من وادى الرمة الوسيع شمال السعودية.

جانب من جبال وادى الرمة.

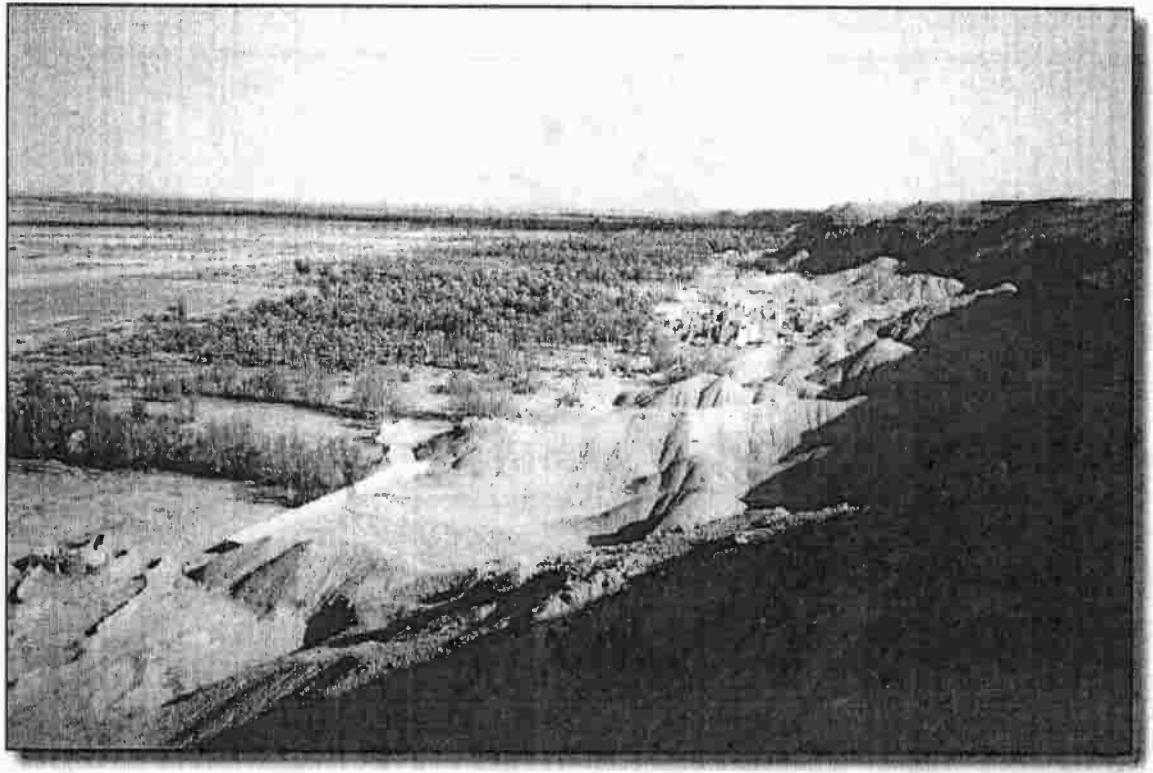

جانب «مثمر» من وادى الرمة القاحل.

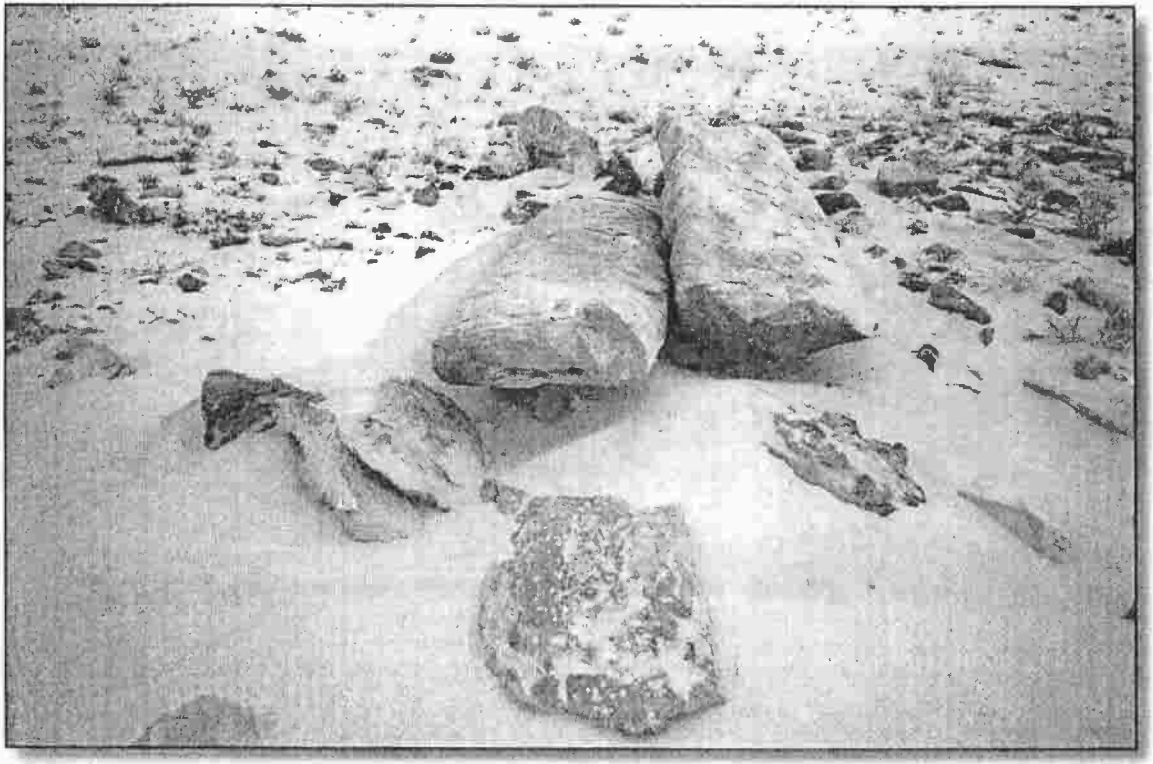

بقايا صخور فى وادى الرمة.

جبال محيطة بوادى الرمه.

لقطة لجزئية جبلية من وادى الرمة.